

الرفيق فؤاد زحيل المثقف العميق الثقافة

أحد المسؤولين المميزين عن دار الفارابي ورفيقي في مهمات صعبة

تعرفت إلى الرفيق فؤاد زحيل في النصف الثاني من ستينات القرن الماضي. كان يومذاك أحد رموز الحركة الطلابية التي كان أعضاؤها قد تبنوا الماركسية. ثم صار بعضهم أعضاء في الحزب لفترة زمنية قصيرة، وبعض آخر ومن ضمنهم فؤاد ظلوا مدى الحياة أعضاء في الحزب ونشطاء فيه كل في ميدانه.

فوجئت يوم تعرفت إليه أنه ابن عائلة ثرية وأنه اختار أن يكون في صفوف الحزب الشيوعي أميناً للأفكار التي كانت قد رسخت في عقله وفي وجدانه باسم الماركسية. وكان له في اختياره ذلك ثلاثة رفاق، لبناني هو الرفيق جورج البطل ومصريان هما الرفيقان محمد سيد أحمد ونبيل الهلالي.

سارعت إلى التعرف إليه من خلال رفاق آخرين أذكر منهم على سبيل المثال الرفيق أسامة العارف الذي صار فيما بعد محامياً وكاتباً مسرحياً مرموقاً. وفور تعرفي إليه تحوّلت العلاقة بيننا إلى صداقة عميقة. وأذكر أنه عندما كُلف في مطالع سبعينات القرن الماضي بالمسؤولية عن دار الفارابي كان من أكثر الذين تحملوا تلك المسؤولية إبداعاً في عمله. وقد ازدهرت دار الفارابي في المرحلة التي كان هو مسؤولاً عنها. وكان من بين الذين رافقوه في تلك المهمة الرفيق كامل شاهين. وكان من بين المبادرات التي قام بها إصدار مجموعة من الكراريس القليلة الصفحات التي تضمنت شرحاً مبسطاً لمفاهيم فكرية وسياسية واجتماعية. وهي الكراريس التي انتشرت على نطاق واسع في عشرات الألوف من النسخ. وإذ أتذكر هذه المبادرة بالذات فإنني أشعر بأسى أن هذه الكراريس لم تعد موجودة. وكنت أتمنى ، لو أنها كانت موجودة، أن تعاد قراءتها من أجل تحديثها وتعميقها لكي تكون إحدى الوسائط في نشر المعرفة كضرورة تاريخية متواصلة في أوساط الأجيال الشابة، الشيوعيين منهم واليساريين من كل الاتجاهات على وجه الخصوص. وأذكر أن أول كتابين لي قد صدرا في عام ١٩٧٤ عندما كان فؤاد وكامل يشرفان على دار الفارابي. والكتابان هما كراس بعنوان "ماذا بعد حرب تشرين" وكتاب فكري بعنوان "كيف نواجه الأزمة في حركة التحرر الوطني العربية؟".

ما ربطني بالرفيق فؤاد هو أنه كان رفيقاً لي في واحدة من أهم وأصعب المهمات أعني المهمة المتصلة في تأمين مداخل مالية للحزب. إذ كنت في ذلك الحين في أعقاب المؤتمر الثاني للحزب (١٩٦٨) قد كلفت بالمسؤولية عن مالية الحزب رغم إرادتي. كان فؤاد مساعداً أساسياً لي

في هذه المهمة مع عدد آخر من الرفاق الذين لن أدخل في تفاصيل الحديث عنهم وعن أدوارهم التي كانوا مميزين فيها. وأذكر أنني مع فؤاد بقينا لفترة من الزمن في المهمة المشار إليها. وعندما خرجت أنا من تلك المسؤولية ظل هو يمارس عمله مع الرفاق الآخرين الذين أوكلت إليهم تلك المهمة. وأشهد أن الرفيق فؤاد قد عانى كثيراً في الفترة اللاحقة بسبب أخطاء ارتكبت كان هو أحد المسؤولين عنها. وهي الأخطاء التي قادته مع الوقت إلى صعوبات صحية سرعان ما غادر الحياة تحت تأثيرها. فبكيته عليه وعلى السمات التي جعلت منه بالنسبة إليّ وإلى كثيرين من الرفاق الذين عرفوه إنساناً رائعاً من النوع النادر المثال.

غير أنني وأنا أشير إلى تلك المهمات التي أوكلت إلى الرفيق فؤاد لا أستطيع إلا أن أتوقف عند جانب مهم من سماته لعله الأهم. وهو أن فؤاد كان مثقفاً واسع الثقافة عميق المعرفة في الكثير من القضايا. وكان على وجه الخصوص عميق المعرفة بالفكر الماركسي. وتشهد على ذلك بعض النصوص التي تركها لنا والتي قدمها في بعض الندوات الفكرية حول الماركسية. وواحدة من تلك النصوص التي ما أزال أحتفظ بها المداخلة التي قدمها في ندوة حول ذكرى فريدريك إنجلز. وكان إلى جانب ذلك عميق المعرفة باللغة الفرنسية إلى الحد الذي قال لي عنه أحد رفاقنا الشيوعيين الفرنسيين في أحد لقاءاتنا في باريس أن فؤاد يتقن الفرنسية أكثر من الفرنسيين. وأشهد، وأنا أتذكر فؤاد، أنه بذل جهداً استثنائياً وبسرعة استثنائية لكي يتقن اللغة العربية. وقد أتقنها بالفعل. وهو ما تدل عليه النصوص التي أشرت إليها.

أتذكر اليوم هذا الرفيق الجميل وأتذكر باعتزاز سماته الطيبة وعلاقتي المميزة معه.